# بين الذاكرة والتاريخ:
# دراسة سيميائية لرواية "وادي اللبن" لعبد اللطيف محفوظ

**د. إبراهيم البوعبدلاوي**
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة درعة – تافيلالت
المغرب

## ملخص:
تثير رواية "وادي اللبن" لعبد اللطيف محفوظ تساؤلات عديدة، تجيب عن بعضها، وتترك الكثير منها مفتوحا. لذا، فإننا سنعمد، في هذه الدراسة، إلى إبراز أهمّ التساؤلات التي طرحت هنا؛ من قبيل سؤال الذاكرة وعلاقتها بالوهم، وسؤال التاريخ والحقائق المتعددة.

إن الخلفية التي انطلقنا منها تمثل في الجمع بين التصور الذاكراتي في جانبه السيميائي، الذي يشير إلى عَدِّ الذاكرة بمثابة حوار بين الماضي والحاضر، والنظر إليها في شقّها الفردي والجماعي، وكذا النظر إلى مختلف النصوص التي تحتفي بها الجماعة بوصفها وثائق تاريخية.

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
البوعبدلاوي ، إبراهيم. (2024، أكتوبر). بين الذاكرة والتاريخ: دراسة سيميائية لرواية "وادي اللبن" لعبد اللطيف محفوظ. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 375-389.

**Abstract:**
Abdul Latif Mahfouz's novel, "Wadi al-Laban," provokes numerous questions, answering some and leaving many open-ended. This study aims to highlight the most significant inquiries raised within the text; such as the question of memory and its relationship to illusion, and the question of history and its multiple truths.

Our starting point is a combination of the semiotic conception of memory, which views memory as a dialogue between the past and the present, and a consideration of memory on both individual and collective levels. Additionally, we examine the various texts celebrated by the community as historical documents.

## ما الداعي إلى الكتابة عن الهامش؟

لقد شكّل المركز مجالا خصبا لدراسات عديدة؛ إذ كتب عنه المؤرخون والرّحالة ورجال السياسة وغيرهم، وتحدثوا عن الكثير من جوانبه، حتى إننا لنجد فائضا في الدراسات حوله؛ فالمتحدث، مثلا، عن مدينة فاس أو مراكش، سيجد حتما دراسات عن مختلف الجوانب، التي يريد أن يخوض فيها ها هنا؛ فقد شكل البحث في العمارة، مثلا، مجالا ثانويا في اهتمامات المؤرخين، ومع ذلك نجد أنفسنا أمام كمّ هائل من الأوصاف لمدن بعينها، شكلت مجال اهتمام السلطة. لكن، ما حظ الهامش من البحث؟ ولماذا لا نكتب عنه إلا نادرا؟ وألا يمكننا أن نكتب تاريخا آخر انطلاقا منه؟

إن الدافع إلى كتابة التاريخ، انطلاقا من المركز، يتمثل في أنه كان "يبدو أن الأدوار التي تقوم بها السلطة والثروة أو الثقافة هي وحدها التي كانت تُحتسب"[1]. وعليه، فإن كتابة تاريخٍ للمغرب، مثلا، لا يتأتى لنا إلا بالحديث عن مراكش أو فاس، كما لا يتم إلا عبر المرور من تاريخ السلالات الحاكمة، وأهم إنجازاتها.

إن ما تحتفي به هذه السلالات هو ما يستحق الاحتفاء؛ ولذلك، فحتى الذين يريدون كتابة تاريخ للفنون يعودون غالبًا إلى ما احتفت به السلطة، وبوّأته مكانة مميزة. إن الحديث عن العمارة، مثلا، لا يتأتى للكثير من الدارسين إلا من خلال الحديث عن منجزات السلطة في مختلف المدن المركزية؛ فدراسة حقبة المرينيين، لا تستقيم - في نظرهم - إلا من خلال الحديث عن مدارسهم والأدوار الثقافية والدينية التي كانت تساهم بها في تلك الفترة، وفي فترات أخرى لاحقة. وقد جعل هذا الاهتمامُ المبالَغ فيه بتاريخ المركز، وتاريخ السلطة، الهامشَ دائما ضبابيّا، غيرَ معروف، وغيرَ مدرك لقيمته ودوره في حياة المركز والتاريخ العام إجْمالا.

وقد عمد التاريخ الجديد إلى قلب التساؤلات التي كانت مركزية بتساؤلات أخرى، وفي هذا السياق يتساءل جاك لوغوف: "أليس لتاريخ الفرد العادي دلالته ودراميته، مثله مثل تاريخ العظماء؟... أليس لتاريخ اللباس وهيئة اللباس وطريقة الأكل جاذبية أكثر من تاريخ المعارك والاجتماعات الدولية؟..."[2]. إننا، على هذا المنوال، نصوغ تساؤلين: أليس لتاريخ تيسة أهمية تعادل تاريخ فاس؟ ألم تَجْرِ في هذه المنطقة أحداث، في فترات تاريخية مختلفة، تعادل أو تفوق الأحداث

---

[1] - جون كلود شميث، تاريخ الهامشيين، ضمن كتاب "التاريخ الجديد"، تر: محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط.1، 2007، ص: 437.

[2] - جاك لوغوف، التاريخ الجديد، م. س، ص: 59.

التي جرت في مراكش أو فاس من حيث الأهمية، ومن حيث تغييرها لواقع المغرب عامة؟ إن هذا ما تحاول رواية "وادي اللبن" لعبد اللطيف محفوظ الإجابة عنه، وسد الفراغات التي تعتري تاريخ هذه المنطقة؛ ومن خلالها تاريخ المغرب. وهذه الرواية تسير في مسار عدد من الدراسات التاريخية، التي جعلت هامش فاس مجال دراستها؛ من قبيل كتاب "فاس وباديتها" لمحمد مزين[1]، ودراسة عبد الرحمن المودن المعنونة بـ"البوادي المغربية قبل الاستعمار".[2]

إنّ ما يُحاوله هذان الكتابان التاريخيان، ورواية "وادي اللبن"، هو العمل على كتابة تاريخ جديد للمغرب، في لحظات زمنية معينة، انطلاقا من منطقة عُدّت هامشية بالمقارنة مع فاس، ثم التأكيد على أهمية مختلف الأحداث التي كانت تجري في بادية هذه المدينة، بوصفها أحداثا لها وزنُها في رسم مسار التاريخ المغربي؛ ذلك أننا نجد المؤرخين، مثلا، تناولوا، بإسهابٍ كبير، معركة وادي المخازن، وتركوا لنا إرثا مهما من الوثائق، غير أننا لا نعثر إلا على شذرات بسيطة تذكر معركة وادي اللبن، مع أنها معركة مركزية في تاريخ المغرب؛ إذ بفضلها توقف العثمانيون عن مدّ أرجلهم في المغرب، ولم يستطيعوا بسط نفوذهم عليه! فالباحث محمد مزين، حين يتحدث عن هذه المعركة، ويحاول فهم سبب عدم ذكر المؤرخين في عهد السعديين أعداد الجيوش في المعارك، يقول: "لن نتعجب من ذلك؛ لأن ضبط الأعداد لم يكن أحسن اختصاص علماء هذه الفترة المضطربة. ولو كان القادة يعرفون عدد جيوشهم، فهم لا يذكرونها لأحد؛ فيبقى المؤرّخون يؤوّلون ما شاؤوا، وربما تركوا هذا الغموض عن قصد... ومثال ذلك جيوش المعركة التي وقعت بين عبد الله (الذي سيلقب بـ"الغالب بأمر الله")، وبين الأتراك بمَقْرُبة وادي اللبن من ناحية فاس، وقد انهزم فيها حسن بن خير الدين"[3].

إن هذه البادية كانت وسطا مهمّا في حياة المركز؛ إذ أثرت فيها تأثيرا بالغا، إلى درجةِ أن المتحكم فيها كان بمُستطاعه التحكم في المركز الفاسي؛ ففي عهد السعديين، الذين وقعت معركة وادي اللبن زمَنَهم، نجد هؤلاء الحكام قد نُصروا من لدن المتصوفة وأرباب الزوايا الذين كانوا يتموقعون في أطراف فاس. ولذلك، نجد السعديين قد اتجهوا إلى البادية أولا، قبل دخول المدينة. يقول عبد الرحمن المودن، بعد ذِكْر أشكال مواجهة السعديين للوجود الوطاسي: "إن هذه الأخبار، مهما سبحت في مناخ رمزي، لتشير، مع ذلك، بكامل الوضوح، إلى غزارة الوسائل التي استعملها

---

[1] - محمد مزين، فاس وباديتها، من منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط.1، 1986.

[2] - عبد الرحمن المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار، من منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط.1، 1995.

[3] - محمد مزين، فاس وباديتها، ص: 150.

الفريق السعدي لمواجهة خصومه الوطاسيين؛ بدءا من الجهاد والإقامة بين أوساط سكان البادية، ومقاسمتها أزماتها، إلى الشراء بالمال"[1].

ولم تكن هذه البوادي مهمة في بداية الدعوة السعدية فقط، وإنما امتدت إلى عهد أحمد المنصور، الذي كان أعظم سلاطين هذه الفترة؛ إذ يورد المودن رسالة بعثها هذا السلطان إلى خليفته بفاس، فيها أن النائب عنه في هذه الأماكن يجب أن يكون مؤتمنا بشكل كبير: "تازى ثم بلاد الفحص... لا تعطَى كلتاهما إلا لأقْرَب الخُدّام، الموثوق بمحبتهم وقُرْبهم وخدمتهم"[2].

ولعلّ ما تحاول رواية "وادي اللبن"، لعبد اللطيف محفوظ، القيام به هو النبش في ذاكرة مكان جغرافي عُدّ هامشيا، وإبراز الدور الريادي الذي قام به هذا الوسط في حياة السلطة المركزية، والمغاربة بشكل عام. ولهذا، فمنذ العنوان، نرى تبئيرا وتركيزا على معركةٍ دارت رحاها في أطراف فاس، ولم تتحدث عنها المصادر التاريخية إلا حديثا عابرا! وذاك ما نجده عند محمد الصغير الإفراني في "نزهة الحادي"، وأيضا لدى صاحب "الاستقصا"، الذي يكتفي بإيراد ما ذكره السابق فقط. أما المراجع التالية على ذلك، فأغلبُها لا تتحدث عنها مطلقا، وكأنها لم تكن مفصلية في تاريخ المغرب؛ إذ لو دخل الأتراك فاس، لصار المغرب حينها عثمانيا، وهذا ما لم يتم بفضل عزيمة الجيش المغربي وشجاعته، بزعامة عبد الله الغالب، ومساندة القبائل الواقعة على الأطراف.

إن الدارس، وهو يهمُّ بقراءة كثير من الروايات، يجد نفسه أمام إرغامين، لا يمكنه تجاوزهما، دون الوقوع في مَزالقَ منهجية وتحليليّة. ولعل أول هذه الإرغامات إرغام منهجي؛ ذلك أن كثيرا من النصوص تفرض على قرائها شكل أو طريقة التعامل معها.. إنها لا تسمح لهم بأنْ ينتقوا ما شاؤوا من المناهج حتى يفكّوا مغالقها، وإنما تقترح، أو تفرض عليهم، النموذج النقدي المناسب للتعامل معها. وهذا ما تفعله رواية "وادي اللبن" بشكل جلي؛ إذ تفرض على قارئها مناهج محددة، لعل أهمها المنهج السيميائي؛ لانفتاحه على الموسوعة والتاريخ، ومنحِه القارئ حرية كبيرة نابعة من النص، الذي يشكل بؤرة كل تأويل ومُنتهاه.

وتأتي، بعد ذلك، التساؤلات التي يطرحها القارئ، وكذا المؤلّف.. إنها تساؤلات لا تتأتى إلا من إكراهات واقعية، هي التي تشْغل بالهما وتُقْلِقهما، بل هي التي تجعلهما يشيّدان عوالمهما. إن القراءة كانت دوما إعادة كتابةٍ للنص من جديد، لكن هذه الإعادة تستمد مشروعيتها من النص الأصلي. ولذلك، فإنّ قراءتنا، هنا، تحاول مساءلة الذاكرة، التي ساءَلَها الكاتب بدْءًا؛ ذلك أن سؤال

[1] - عبد الرحمن المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار، ص: 82.

[2] - نفسه، ص: 84.

الذاكرة يعدّ من الأسئلة المركزية التي شغلت بال السارد، وجعلته يبدأ رحلة البحث، وجعلتنا - بدورنا - نتتبّع ماجريات أحداثها انطلاقا من وَعْي السارد.

## الذاكرة وتعدّد أوجهها:

حين عالج أفلاطون مشكلة الذاكرة في كتابيه "ثياتيتوس" و"السفسطائي"، فإنه عالجها انطلاقا من مفهوم "الصورة"؛ ذلك أن الذاكرة عنده، كما هي عند أرسطو، عبارة عن صُور. إن أفلاطون، في كتاب "السفسطائي"، مثلا، وضع الصورة، التي هي مرادفٌ من مرادفات الذاكرة، تحت عنوان: "فنون الإيهام والإيماء"[1]. ونعلم أن وضعًا كهذا يُظهر النظرة السلبية والحَذِرة التي كان ينظر بها نحوها. لقد وُضعت الصورة (الذاكرة) إلى جانب الخيال، وهذا الصنيع يُظهر كيف يمكن للذاكرة أن تتماهى معه، دون أن يُعرف الحد الفاصل بينهما. وهذا ما سنجده أثناء بحث السارد عن قصة التاج السلطاني عند أغراب، وقصة الوسام الملكي عند الفراط.

بدأت الحكاية بمأتم، حين يُتوفى خال السارد بتيسة؛ فيذهب لتقديم واجب العزاء. وبعد الدفن، وبينما هو إلى جانب الحاضرين، إذ بأحدهم، وقد كان من عائلة السارد من جهة الأم، يتحدث حديثا غامضا، وذلك لأنه أصيب بالخرف، وفقد ذاكرته. لكن، رغم ذلكَ، بقي السارد يُنْصت إليه بوعيٍ بين الفينة والأخرى، وعلقت في ذهنه جملة: "سرق رجال التحرير تاج جدنا، الذي أهداه إياه السلطان"[2].

لقد كانت هذه الجملة مفتاحا سريّا، جعل السارد يبدأ رحلة فكّ لغز التاج، ولغز السلطان.. هو يدرك أن قانون الذاكرة خادع، ومع ذلك قرّر خوض مغامرته البحثية، لعلها تُوصِله إلى ترميم الجزء المفقود من هذه الذاكرة المشوّشة. إن الموت، وما تبعه من أحداث في الفصل الأول، وأهمها جلوس السارد إلى جانب أغراب، واستماعه إلى حديثه الهذياني المتسلسل، الذي لا رابط بين أجزائه، كان بمثابة تمهيد للحكاية؛ تمهيدٍ للَمْلَمَة الذكرى من كل جوانبها؛ ذلك أن مِنْ قوانين الذاكرة حاجتها دائما إلى محفّز كي تسترجع، وكي تنتقي أحداثها المستعادة.

---

[1] - أفلاطون، السفسطائي، تح: أوغست دييس، تر: الأب فؤاد جرجي بربارة، من منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط.2، 2014، ص: 100.

[2] - عبد اللطيف محفوظ، وادي اللبن، دار الفاصلة للنشر، طنجة، ط.1، 2021، ص: 23.

**الذاكرة والألفة:**

نحن أمام رحلة، والرحلة لا بد لها من محطات، وقد كانت لكل محطة شخصيات أساسية؛ فكان في فاس أخوا السارد، اللذان يمثلان جزءا مهمّا من ذاكرته، سواء الطفولية أو الآنية. ففي الفصل الثاني، المعنون بـ"كلام الليل الذي يمحوه النهار"، نُلْفي السارد يجلس مع أخيه عبد الدايم، بمقهى من المقاهي الشعبية، يتناولان الفطور، ويخُوضان حديثا مقطعا. وبينما هما كذلك، جعل السارد يتأمل الرسومات الموجودة في صحفته، وتلك التي تؤثث فضاء زلفة أخيه. لقد عقد مقارنة، كان من نتائجها إعجابه بما في صحفته. لكن - يا تُرى - لماذا؟ إن ما هو مرسوم حرّك في ذاكرته الكثير من المياه الراكدة، بل وحفّزه على تأويل الرسومات، ومحاولة ربطها بعدة سياقات. في حين أن زلفة الأخ الصينية، رغم تناسق رسوماتها، لم تحرك فيه أي شيء، وبَدَت خافتة وباهتة بالنسبة إليه. يقول السارد: "ذهلت عن العالم من حولي، حتى لم يبقَ منه إلا هذه الصحفة. كنت أديرها، وأدقق النظر في رسوماتها المتشابهة والمتباعدة القدر... بدت لي على غيْرِ ما كنت أراها.. رسومات تُضْمر جمالية خفية، لا تدركها إلا عين ترى الأشياء بروح فنان.. كانت الرسومات مشابهة لوردة شجرة الدّفلى، لونها أرجوانيٌّ، وعددُها خمسة...".[1]

أما زلفة الأخ، فقد قال في حقها: "كنت بين الفينة والأخرى أرمق زلفة أخي العصرية المزينة برسومات متناسقة وجميلة، وأقارن انفعالي بصورتها بانفعالي بصحفتي، فأحس الفرق شاسعا. وأستغرب كيف لا تحرك فيّ الزلفة شيئا. وأتساءل هل لأني اعتدتها منذ سنين، أم لأنها لا تفتح مسربا في الذاكرة نحو دروب الصبا المحبوبة".[2]

يطرح السارد، هنا، إشكالية علاقة الذاكرة بالألفة، وبالماضي المعاش. إن ما تثمّنه الذاكرة هو ما تألفه، وما كان لها معرفة قبلية به.. إنها تستشعر أنه مِلْك لها، وأنه يمثلها.. إننا أمام تماهٍ بين ثلاثة عوالم: الذاكرة والهوية والثقافة. لقد مثلت الصحفة أحد مكونات الهُوية الطفولية للسارد، بما تحيل إليه من عوالم، لا يستقيم الحديث عن الطفولة إلا من خلالها. كما مثلت جزءا من ثقافته الجزئية والشاملة. ولهذا، فهو حين يسترجع الماضي لا يسترجع الذكريات فقط، وإنما يستعيد هُويته وثقافته. وهو ما لا تمنحه إيّاه زلفة الأخ، حتى وإنْ كانت جميلة ومتناسقة الرسومات.

---

[1] - المصدر نفسه، ص: 28.

[2] - نفسه.

يستحضر السارد، هنا، مفهوم "الألفة"؛ كما هو عند برتراند راسل، الذي يرى، انطلاقا من مفهوم "الصورة"، أن هناك أنماطا منها، نحس عند مشاهدتها بأنها قريبة منا.. نعْرفها، ولنا أُلفة معها. في حين نجد أن هناك أخرى، لا نستشعر ذلك معها؛ بحيث تكون غريبة عنا، وليس لنا أدنى علم بها. يقول: "بعض الصور، شأنها شأن بعض الأحاسيس، تبدو مألوفة جدا، فيما تبدو صور أخرى غريبة. الألفة، إذن، هي شعور قابل للتدرج. ففي صورةٍ لوجهٍ معروف جيدا، مثلا، يمكن أن تبدو بعض الأجزاء أكثر ألفة من بعضها الآخر. وحين يحدث هذا، يكون لدينا اعتقاد بدقة الأجزاء المألوفة أشد ممّا هو بالأجزاء الأقل ألفة"[1].

**الذاكرة والسياق:**

إن ساردنا، وهو يسترجع ذكرياته مع الصحفة، التي يتملّاها جيدا، لا يستعيد ذكرًى بعينها، وإنما يستعيد الماضي مجرّدا من كل الشوائب.. إنه ماضٍ لا يستحضر السياقات. وهذا ما يجعل هذه الذكريات بعيدة المنال وضبابية، رغم أنها تستعيد الطفولة؛ إذ إنها لا تنتقي لحظةً بعينها؛ كما هو قانون الذاكرة الانتقائي. إن مفهوم السياق هو الذي يحدد المسافة الزمنية الفاصلة بين وقوع الحادثة ولحظة استرجاع الذكرى؛ فإذا كان بإمكاننا أن نسترجع الذكرى وَفق أجزائها، وبترتيب متناسق، فإن هذه الذكرى، من الناحية الزمنية، قريبة الحدوث. لكنْ، شيئا فشيئا، يبدأ هذا الأمر بالأفول؛ فتصبح الذكرى صافية من كل شوائب السياقات. إن الإحساس بأنّ الترتيب الزمني قد تلاشى في الذكرى هو الذي تكتسبُ من خلاله الواقعةُ "علامة الماضوية الصحيحة"[2]. وعليه، فإنّ الذكريات التي يستعيدها السارد مع الصحفة، ومع الرسومات المؤثثة لفضائها، اكتسبت صبغة ماضَوِيّة.

يحْدث مثل هذا الاسترجاع كثيرا ضمن مختلِف أطوار الرحلة، ولاسيما مع السارد الذي كلما رأى أو سمع شيئا تذكّر أشياء تربطه بطفولته، وبمواطن الصبا، وخاصة تيسة وفاس؛ إذ إنه يتذكر اللحظات التي كانت تخرج فيها والدته للتنزه، وأثناء ذلك تلتقي نسوة؛ فيبْدَأن بسرد هُمومهن، وكل ما يتعلق بهن، دون أن تكون ثمةَ أي علاقة سابقة بينهن، غير أنه لا يذكر واقعة بعينها، تجسد هذا المعطى. يقول السارد: "قادتني التداعيات إلى تذكر العُرف القاضي بألّا تخرج النساء للاستجمام إلا مرفوقات بأطفالهن؛ فعبرتْ سماء ذهني ذكريات جولات أمي مساءات الجمع. استعدت بنشوة لحظات استمتاعي برفقتها، وخصوصا معرفة الآخر بلا مقدمات،

---

[1] - برتراند راسل، تحليل العقل، تر: عبد الكريم ناصيف، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، ط.1، 2016، ص: 161.

[2] - نفسه، ص: 162.

ونسيانه، أيضا، بلا مقدمات".[1] ينطبق الأمر، هنا، على تذكره، وهو يتجول في شوارع فاس، الكبار الذين يجلسون بالمقهى، ويتملّوْن وجوه المارّين؛ فكان يتمنى أن يصير كبيرا، حتى يجلس حيث يجلسون، ويعيش كيف يعيشون.

### الذكرى.. صوروحنين:

يستعيد الإنسان الذكريات، سواء أكانت سلبية أم جميلة.. إنه لا ينتقي بنفسه طبيعة الذكرى، وإنما يستعيد ذلك وفق محفزات. ولعل ساردنا، حين يسترجع صورا من الماضي، لا يستعيد إلا تلك الذكريات الجميلة، وحتى تلك السلبية كان يصورها بمظهر حَسَن، أو بالأحرى كانت تتبدى له جميلة. إن هذا ما يدعى "حنينا"، يعود إلى ماضيه بلذة واستمتاع. ولهذا، نلفي الكثير من العبارات الدالة على ذلك في الرواية؛ منها: "استعدت بنشوة لحظات استمتاعي برفقتها" (ص: 31)؛ "لست أدري لِمَ بدت لي نهارات تلك الأيام، برونقها وبساطتها، أعز وأبهى من سهرات ليالينا الآن" (ص: 32)؛ "أحب استعادة تلك الأيام، ربما لأني كنت حُرا فيها من أي التزام" (ص: 33)... بحيث نجد، هنا، اقترانا بين الذاكرة والمتعة، وهذا ما يعطينا انطباعا بأنّ هذه الذاكرة لم يستقر بداخلها إلا ما هو ممتع وإيجابي، أو ما كان غير ذلك؛ فصيّرته حَسَنا مع مرور الزمن.

وترتبط مختلف الذكريات التي تتحقّق فيها المتعة بالسارد، الذي يستعيد من خلالها جزءا من ماضيه، وماضي أسرته وأغلب مُجايليه. وهو حين يستعيده، لا يحاول لجم ذاكرته، وإنما يترك لها المجال كي تنساب، دون أن يعترضها عارض. وعليه، فحتى حينما يقتطع من الزمن الماضي جزءا، كان مفترضا أنه سلْبي أو ذو وضعية دونية، يسترجعه بكلّ لذة وحنين. وذلك ما أشرنا إليه، حين كان يرى من هُمْ في المقهى؛ فيتمنى لو كان مثلهم.. هذه اللحظة ذات تثمين سلبي، ومع ذلك فهو يحِنّ إليها؛ لأن كل الدروب والأشخاص والأزمنة، التي ألفها ماضيا، غَدَت تُثمّن إيجابيّا.

### الذاكرة والوهم:

يعتقد الإنسان أن الكثير من الأحداث وقعت على الشكل الذي بقيّ مخزّنا بها في الذهن؛ ينسى أو يتناسى أن الزمن يفعل فعله، وأننا لا نستعيد إلا صورة عن الماضي. يمكن لهذه الصورة أن تكون قريبة من الحدث، قادرة على منحه بُعدا محيّنا بكيفية تقريبية، ويمكن أن تكون هشّة وغائمة جدا. ومع ذلك، فنحن أمام صورة؛ أي أمام وضعية مموّهة وموُهِمة.

---

[1] - برتراند راسل، تحليل العقل، تر: عبد الكريم ناصيف، مرجع سابق، ص: 31.

ويمتاز ساردنا بوعيٍ قادر على تفكيك الأحداث التي تجري أمامه، وإعادة التركيب بينها، بل والتقريب بين كثير من الأشياء، التي تبدو للوهلة الأولى متباعدة. وقد كان لا يكتفي بسرد الأحداث، وإنما يعلّق عليها، ويقدّم بشأنها وجهة نظره، ووجهات نظر أخرى؛ إذ يشير، في أحد المقاطع، إلى الخلل الذي يمكن أن يصيب الذاكرة؛ أي النسيان الذي يصير عائقا وحاجزا أمام الذكرى، وذلك من خلال استحضار الوسام السلطاني عند الفرّاط، والتاج السلطاني عند أغراب، وكلاهما يذكر الحكاية الخاصة به يومَ أصيب بالخرف لا غير. يلتقي السارد بمصطفى؛ فيتحدثان عن الحكايتين معا، وعن شخصيتي الفراط وأغراب. بيد أن المعجم الموظف لدى الحديث عن الشخصيتين يمتاز بتثمين سلبي، لكنْ ليس من قبل السارد، وإنما من قِبل الجماعة التي ينتميان إليها، بعَدِّهما شخصين يصُوغان ذاكرة مغايرةً للذاكرة الموروثة عند الجماعة. يقول السارد: "كان لقائي بمصطفى وجيزا؛ لذلك تلافَيْنا المقدمات، وذهبنا رأسا إلى الموضوع. أخبرني أنه، لأول مرةٍ، يسمع حكاية أغراب كاملة. أما حكاية الصندوق، فسمع بها قبلا، وتعرّف على ظروفها كاملةً من المهدي يومَ استضافنا، بيد أن أحدًا لم يسبق له أن أخذ حديث الفراط مأخذ الجدّ؛ فقد عدّوه هلوسة من همس الجنون، الذي ينتابه بين الفينة والأخرى. لكن حكاية أغراب، التي ظهرت في لحظة أصيب فيها هو الآخر بالخرف، تبعث على التملّي والتأمل، وربط علاقات شتى، حتى إذ لا يمكن أن تصدر نفس المعلومة تقريبا، عن شخصين بينهما تاريخ مشترك، ونسب مشترك"[1].

يظهر من هذا المقطع، الذي هو في الأصل عبارة عن حوار، أمران متناقضان:

من جهة أولى، هناك شخصيتان تحكيان عن حادثتين قديمتين، لكنّ زمن الحكي يمتاز بكونه صادرا زمن فقد مصدر الحكي؛ أي التاج والوسام. ثم هناك فقد آخر، يتمثّل في فقدان الذاكرة، وما يترتب عنه من تشويه للوقائع والأحداث، أو يمكن حتى أن تضاف وتحذف أشياء كثيرة.

من جهة ثانية، فكِلتا الشخصيتين تحكي الحدث، وإنْ بطرق مختلفة؛ مما يجعل المستمع يشكّ، ويطرح على نفسه تساؤلات حول حقيقة ما يتفوّه به شخصان، يظنّ أنهما لم يعودا يُدْركان ما يتفوّهان به.

ويمضي السارد في تحليلاته، وفي تشبيك دواليب السرد، مُقلبا الموضوع على وجوهه المتعددة والمتنوعة، وذلك بحثا عن الحقيقة الضائعة؛ تلك الحقيقة التي لا نعرف هل هي متضَمَّنة في كلام

[1] - برتراند راسل، تحليل العقل، تر: عبد الكريم ناصيف، مرجع سابق، ص: 105.

الفراط، أم في هذيانات أغراب، أم هي متحققة فيما صارت تؤمن به الجماعة بعد أن حصل لهذين الشخصين ما حصل.

إنّ ما يجعل الحقيقة غائبة وغائمة هو وجهات النظر المتعدد هذه، وضبابية آلة التذكر عند كل من الفراط وأغراب، وهذا ما يحيلنا إلى أفلاطون من جديد، الذي كان متيقّنا منْ أن كلّ تذكر إنما هو صورة ممسوخة ومشوّهة عن الواقع، ومن أنه - لا بدّ - محاط بالنسيان والخطإ. ولذلك، شبّه الذاكرة بطبقة الشمع. ولنقرأْ رأيه في المسألة، حين يقول على لسان سقراط: "النقل إنها هبة من الذاكرة أمّ ربّات الفن، وكل ما ينبغي الاحتفاظ به في ذاكرتنا، مما قد رأيناه أو سمعناه أو تصوّرناه، يأتي إلى هذا الشمع، الذي نفترض وجوده؛ فيتقبله بما فيه من الإحساسات والتصورات ليحفر عليه ببروز كعلامات ننقشها عليه، وما ينطبع فيه يكون لنا عنه ذاكرة وعلم طالما ظلّت صورته موجودة، وما ينمحي ولم ينجح في الانطباع ننساه، ولا نعرفه على الإطلاق"[1].

إننا أمام طبقة من الشمع، ترتسم الأشياء عليها وتُحفظ، لكنّ الشمع يتسم بكونه قابلا للاشتعال والاحتراق، كما أنه يمكن أن يضيء الطريق والمكان. غير أن هذه الإضاءة محددة بزمان؛ إذ لا يمكن للطبقة أن تستمر وتدوم. ومع ذلك، فإن أفلاطون، في محاورة ثياتيتوس، يجعل تفاوتات بين البشر في تملّكهم لهذه الملكة؛ إذ هناك مَنْ يمتلك منها حظا وافرا؛ فترتسم في ذهنه آمادا أبعد، وهناك من ترتسم الأحداث عنده مدة متوسطة، وهذا النوع يمتلك جزءا أقل من السابق، لكنه أكبر من الصنف الثالث، الذي له حظ قليل فقط منها. ولذلك، فهذه الطبقة يمكن أن تكون على هيئات مختلفة بحسب الأفراد المتملّكين لها.[2]

تُرَى ما الذي يمكننا قوله عن ذاكرةِ كلٍّ من أغراب والفراط؟ تلتزم الجماعة، التي ينتميان إليها، بمَنْح مختلف الأفعال والممارسات، التي تصدر عن هذين الشخصين، تثمينا سلبيا؛ نظرا لمخالفتها الأعراف والمواضَعات التي سَنَّتها الثقافة؛ إذ حتى لو سبق لسلطان أن أهدى وساما، أو منح تاجا لأحدهم داخل القبيلة، تناست الثقافة هذا الأمر، وعدّته ثانويا. وهذا ما يحصل لكل الأحداث التي تعدّ هامشية، وليست ذات بال؛ إذ إن مِن بين أهم قواعد الذاكرة الجمعية، والثقافة بشكل عام، إهمالها لأنساق، وإعلاءها من شأن أخرى. كما أنها قائمة على الحوار بين الماضي والحاضر، وهذا الحوار يتخذ أشكالا عديدة، من بينها النقد الذاتي؛ إذ إن ما يلائمها من النصوص تسعى إلى الحفاظ عليه، وما لا ينسجم معها تحاول تهميشه ومحاربته. يقول يوري لوتمان

[1] - أفلاطون: محاورة ثياتيتوس لأفلاطون أو عن العلم، تر: أميرة حلمي مطر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ص: 103.

[2] - نفسه، ص ص: 102-103.

(Y. Lotman): "إن الذاكرة هي أشبه ما يكون بمولّد، يعيد إنتاج الماضي من جديد؛ أي إنها قادرة على تحويل كل السيرورات التي نقلها إلينا الفكر من الماضي... إن العلاقة المتبادلة بين الذاكرة الثقافية والتأمل الذاتي هي علاقة تشبه الحوار المستمر والدائم؛ فالنصوص المنحدرة، أو المعبرة عن فترات زمنية سالفة، يمكن ضمُّها إلى الثقافة؛ فتتفاعل مع الآليات المعاصرة، وتولِّد صورة للماضي التاريخي، الذي نقلته الثقافة، وتصبح شريكا مساويا في الحوار، لها القدرةُ على التأثير في الحاضر"[1].

وعليه، فإن الجماعة، حين ترفض ذاكرة الفراط وأغراب، حتى وإنْ كانت ذاكرةً تحاول الرفع من قيمة الفرد والجماعة، فهي تمارس الوصاية على شكل التفكير، وتنتقد كل ما يخالف القواعد الموروثة منذ أزمنة مديدة؛ ذلك أن مِنْ بين القواعد أن السلاطين لا يتخَلَّون عن تيجانهم إلا مُرْغَمين، وذلك يكون لصالح سلاطين أقوى منهم، وليس لأفراد هامشيّين، لا وزن لهم.

يعد نسيج الكلام، في حكايتي الرجلين، نسيجا عائليا.. إننا هنا أمام ذاكرة عائلية؛ إذ تتنوع الذاكرات، وتتفرع؛ فنرى ذاكرة للجماعة الكبرى، وذاكرة للشباب، وذاكرة للمثقفين في حقل معرفي ما، وما إلى ذلك. وعليه، فذاكرتهُما فردية، غير أنهما يحاولان تسويقها بوصفها جماعية ومسلَّمة ثقافية. يقول مصطفى في حديثه مع السارد: "إنه من المهمّ أن نتأمل القرابة أولا؛ فكلاهما ينتميان إلى أسرة ممتدة، تعيش في نفس البيت الكبير مع الجد، الذي يخلفه الابن البكر، حتى إذا ما امتدت أكثر من اللازم. ويحدث هذا حين يصبح البِكْر جدّا، ويشارف إخوتُه على أن يصيروا أجدادا؛ فينتقلون إلى بيوت أخرى، وهكذا... أوضح أن هذا التقليد يقصر إرث الأشياء الثمينة - التي لا تقبل القسمة - على الكبار وحدهم؛ لذلك يتم التستر عليها، وتمريرها خلسةً من الأب إلى الابن البكر، كما لو كانت ولاية، أو قوة روحانية؛ كتلك التي تجعل المرء قادرا على علاج مرض ما"[2].

إن قبول ما يتفوَّه به الرجلان هو قبول بالثقافة والهوية، اللتين يحاولان بثهما في الجماعة، وهي جماعة لم تعُدْ تؤمن بالماضي في جانبه الذي يوشك أن يصير خرافة. ولأن ساردنا ليس شخصا بسيطا، وإنما هو فرد مثقف واعٍ، مهتم بتاريخ منطقته، فإنه يحلل القصص، ولا يترك لقارئه مهمة التكفل بذلك، بل يفرض عليه سيناريوهات ومسارات تأويلية؛ من ذلك تأويله حكايةَ التاج، مُستحْضِرا المقارنةَ بين الفراط وأغراب. يقول السارد: "كان الأمر، الذي ألح عليّ؛ كي أواصل

[1] - نقلا عن: عبد الله بريمي، البناء السيميائي للذاكرة، مجلة "أبوليوس"، الجزائر، ع.2، مج.8، جويلية 2021، ص: 90.

[2] - وادي اللبن، ص ص: 105-106.

استحضار الحكاية، هو تشابه مصير الفراط وأغراب. فكلاهما أصابه الخرف والاضطراب النفسي، وكلاهما يزعم ضياع هدية سلطانية".[1]

ليس هذا فحَسْبُ، بل نجد هذا السارد يمنح الوضعيات تسميات علمية، لا يدركها إلا المختصون في الميدان الذي يتحدث فيه، وهذا الميدان يتمثل، هنا، في التاريخ والتأويل. وهذا ما يجعل الحكايتين (حكاية التاج، وحكاية الوسام) خارج منطق الواقع، وخارج ما تؤمن به الجماعة؛ فهُما، إذاً، لا تنتميان إلى دائرة الحقيقة. يعلق السارد، بعد بحث طويل ومُضْنٍ عن حقيقة قصة أغراب: "تبيّن لي أن خبر أغراب جرى، على أكبر تقدير، تحريفه وتضخيمه، وقد خضع لمنطق الليجاند (الحكاية التاريخية المعدّلة)، التي تسعى إلى تخليد مَجْد عشائري من طريق تصعيد الفعل، وأَسْطَرَة الأحداث التاريخية؛ فلم أجد ما يمكن أن يكون أصلا لحكايته إلا حرب وادي اللبن الثالثة، التي وردت في كتاب "تاريخ التيجان في معارك الوديان"؛ تلك التي دارت بين المتوكل وعمّه عبد المالك السعدي".[2]

**الذاكرة والتاريخ.. تعدّد الحقائق:**

تتنوع الحقائق وتتعدّد، وذلك بتنوع وجهات النظر والمقاصد.. إننا لا نجد حقائق ثابتة طوال التاريخ؛ فما كان، بالنسبة إلى حقبة ما، حقيقة، قد يصير عكس ذلك في لحظة زمنية ما، وهذا ما يقع في العلوم الحقة وغيرها؛ ذلك أن تاريخ العلوم هو تاريخ تجاوز لأخطاء وحقائق ماضية. وإذا كانت اللقاءات المعروفة، التي سميت بـ"وادي اللبن"، قد حدثت في عهد السعديين، وشهدت أحداثا فارقة في تاريخ المغرب، فإننا نجد تصورَيْن حول هؤلاء الحكام، الذين حكموا المغرب في لحظة زمنية، شهدت تصاعُد قوتين عظيمتين في الخارطة الدولية؛ يتمثل الخطر الأول في النفوذ العثماني، الذي أحكم سيطرته على المشرق العربي، ووصل إلى الجزائر، ويتمثل الخطر الثاني في النفوذ المتعاظم للبرتغاليين والإسبانيين، الذين ملكوا العديد من المدن الساحلية المغربية؛ من مثل الجديدة وأسفي وغيرهما.

إن هؤلاء الأشراف قد وجدوا مَنْ عَظّم أمرهم وبَجّلهم، ومن ذلك عبد العزيز الفشتالي، الذي ألف كتاب "مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا"، وابن القاضي صاحب "المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور"؛ فهذان المؤلَّفان يُشِيدان بمختلف المآثر والخصال التي كان يتمتع بها الشرفاء الزيدانيون، وفي مقدمتهم أحمد المنصور الذهبي. وهناك مَنْ تحامَلَ عليهم، ووصفهم

[1] - وادي اللبن، ص: 97.

[2] - نفسه، ص: 152.

بأقذع الأوصاف. ومنهم المؤلف المجهول؛ صاحب الدولة السعدية التكمدارتية. وفي ذلك إثبات لنسبية الحقائق التاريخية، وفسْح المجال لإعادة النظر في مختلف الأشياء، التي وصلت إلينا من الماضي.

وتمتاز ذاكرة كلٍّ من الفراط وأغراب بالتشوش، وغلبة الوهم. ومع ذلك، فإمكانية أنْ يكون قد وقع جزء مما يدّعيانه أمر وارد. وهذا ما نلمس صدىً له عند السارد؛ فبعد أن رأيناه غير مقتنع بما كانا يهذيان به، نراه قد بدأ يطرح تساؤلات حول قصة الفراط، حين يقول: "في ظل هذا الالتباس، تعددت الاحتمالات؛ هل السلطان، الذي حمله جدّ ما من أسلاف أغراب، هو السلطان محمد الشيخ، أم عبد الله الغالب، أم المتوكل السعدي، أم القاسم، أم زيدان، أم عبد المالك؟ هل هو قرقوش، أم الهبري، أم العياشي، أم بوحمارة؟".[1]

نلاحظ، هنا، الساردَ وقد بدأ يُداخله الشك مما قاله الفراط، وهذا الشك هو المصدر الأول، الذي جعله يتابع خيوط الحكاية منذ أنْ سمع جزءا منها في المأتم عند أغراب. وعلى الرغم من اقتناعه بأن أيّا من الرجلين لم يعد له مع الماضي إلا رابط بسيط، فإنّ هذا الأخيرَ يمكن أن يقود المرء إلى شيء ما. إن ساردنا؛ لكي يكشف جزءا من الحقيقة، بدأ رحلة بحث مُضْنية بين رفوف المكتبات، وفي الشبكة العنكبوتية، وعند أهل تيسة وغيرهم. وقد أدّى هذا التعدد في مصادر البحث إلى تضارب في الأحداث والوقائع، وكذا الحقائق التاريخية. ولهذا، تمّت عَنْوَنة الفصل السابع بمسمى "لعنة الروايات". ومن بين ما جاء في هذا الفصل، أثناء بحث السارد عن نقطة ضوء، تنير عتمة طريقه؛ من خلال التنقيب في كتب مختلفة، تنتمي إلى حقب تاريخية متنوعة، ما يأتي: "تحولت المتعة، شيئا فشيئا، إلى حيرة، والسعادة بالمعرفة إلى تعاسة الخيبة؛ فقد كانت المعلومات مختلفة من مؤرخ إلى آخر، وكانت الأحداث متداخلة غير مرتبة، والأخبار مقتَضَبة، والقبائل بأسماء مختلفة ومواطن ملتبسة، ناهيك عن صورة باهتة للعقل".[2]

يجد القارئ نفسه، وهو يتابع خيوط الحكي، ضمن نسق سردي محكوم بتصور صارم، يحاول السارد نقله إليه، حتى إنه لَيَقتنع بأن الحكاية، هنا، ليست إلاّ وجْها مرئيا لحقيقة خفية، تتمثل في أن التاريخ والذاكرة معا ما هما إلا روايات تتنوع بتنوع السُّرّاد، وبتعدد الغايات التي يهدفون إليها. ولذلك، نرى، طَوالَ التاريخ، تهويلات وتضخيمات لأحداث، كما نلفي - بالمقابل - استصغارا لعدد من الشخصيات، وتنقيصا لدورها التاريخي.

---

[1] - وادي اللبن، ص: 151.

[2] - نفسه، ص: 142.

وعليه، فالسيناريو الأبرز للقراءة، والمحدَّد من قبل المؤول الأول للحكي، الذي هو السارد، يتمثل في غياب المرجع، الذي يمكن الاحتكام إليه عند الضرورة. وهنا، يعبّر السارد عن هذه الوضعية المقلقة، التي أرّقته، وحوّلت متعته البَحْثية إلى شيء نقيض؛ بحيث لم يعد يجد في التاريخ ذلك البُعْد السردي فقط، وإنما صار يراه مجالا للصراع الحقائقي والمقاصدي، بل وصار ميدانا غير بريء، وذلك خلاف ما يتصوّر المرء العادي، الذي يقرأ الوقائع والأحداث -فقط- من أجل استخلاص المتعة لا غير؛ وذلك بالقول: "حين عُدْت إلى كتب المؤرِّخين المعاصرين، الذين اهتموا بالمنطقة، تيقنت من صعوبة البحث في التاريخ، وضبط حقيقة الأحداث وصحتها، وخرجت بانطباع مخيِّبٍ للآمال جميعها. لا شيء يعتدّ به، وليس ما نقرؤه في كتبنا إلا تأويلات منسجمة ومقتضبة، تجعلنا نتوهم أن التاريخ واضح ومتسلسل وبريء. والحق أنه ليس سوى سرود مفككة بلا دليل، أشبه ما تكون، في أغلب أوصافها وتوثيقها، بمسرحية شاهد ما شافش حاجة". [1]

إن كثرة المعارك، التي دارت رحاها ببادية فاس، تظهر مكانتها في تحديد شكل السلطة، وفي تحديد الكثير من خصائصها. ثم إن مزاج أهل تيسة جعلهم يصدّقون الكثير من الأشياء، ويمنحونها تثمينا إيجابيا. وهذا ما يمكن أن يجعل كلّا من الفراط وأغراب يتوهّمان مثل هذه الحكايات. غير أنه يمكن التخمين بأنّ ما يتحدث به الرجلان حقيقة، لكنْ هل، فعلًا، كان الأمر مع سلطان، أم مع شخص اختلطت صفاته بالسلاطين؟ إن ذلك ما يجعل ساردنا يتساءل كثيرا عن المسألة، حين يقول: "قلبت الحكاية من جديد، مستحْضِرا التاريخ الأسود المترحَ بجراحات الحروب والحرْكات والمحلّات؛ فاستشعرت صعوبتين أرّقَتاني، تعود الأولى إلى التوصيف الإيديولوجي، الذي مورس على القبيلة، وخلط بين الثوار والسلاطين؛ فتعدّ الجميع سلاطين؛ الشيء الذي جعل عددهم كبيرا. وتعود الثانية إلى اسم المدينة، الذي - إلى الآن - لا يعني بـ"حوض وادي اللبن" إلا مدينة واحدة، هي فاس. فهل المعنى، الذي ورثه أغراب، يشذّ عن القاعدة؛ فيشير إلى تازة أو باديس؟". [2]

إن الإنسان، رغم تعدّد الحقائق التي يصادفها في طريقه، لا بد من أن يتحيز لواحدة منها، قد يعتنقها اعتناقا كليا، وقد يجد فيها مهْربا من وحشة عدم الإيمان بأيّ حقيقة. ولذلك، فإنّ الرواية تذهب إلى الاعتقاد بأنّ ما يَحْكيه كلٌّ من الفراط وأغراب حقيقة، وإنْ كانت ملتَبِسَة. وهذا ما نستشفُّه من حديث السارد عن احميدة؛ جد أغراب، الذي كان أثناء حرب المتوكل مع عمه عبد

---

[1] - وادي اللبن، ص: 144.

[2] - نفسه، ص: 151.

المالك في معركة وادي اللبن الثالثة. ولمكافأة هذا الرجل على وفائه، وإنقاذ حياة المتوكل، فقد منحه تاجه. يقول السارد، مستنِدًا إلى كتاب "تاريخ التيجان في معارك الوديان"، إنه "حين اعتلى (المتوكل) صهوة الفرس، انحنى على أذن احميدة، وهمس له: «خذ هذا الكيس، واحتفظ به حتى يستقر الأمر، واحمله إليّ لتنال كل ما ترتضي؛ وإذا قدّر، ولم نلتق، فاحفظه بركةً لك، ولخلفك إلى يوم الدين.. إن به تاجي الذهبي»".[1]

## خاتمة:

لقد سعت رواية "وادي اللبن" إلى إعادة كتابة تاريخ جديد انطلاقا من الهامش، وذاك ما يخالف التاريخ التقليدي، الذي كان دائما ينطلق من المركز. وقد طرحت عدّة تساؤلات على القارئ، الذي كان يتابع ماجريات البحث عن الحقيقة من قبل السارد. وقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى عدة نتائج، منها:

كتابة التاريخ انطلاقا من الهامش ليست مسألة بسيطة؛ ذلك أن الكتابات عن المركز تتوافر بكثرة، أما الهامش فظل مقصًى من اهتمام المؤرِّخين.

يمكن أن تشكّل الأحداث التي جرت في الهامش محطات مهمة من تاريخ الدول بشكل عام. ولذلك، فإنّ قراءة هذا التاريخ قراءة سليمة لا يمكن الاكتفاء فيها بدراسة ما كان يقع في المركز وحده.

الذاكرة التي تسعى الرواية إلى إيقاظها ذاكرة ذات أوجه عديدة؛ منها الوجه المرتبط بالمتعة، والوجه المقترن بالألفة، والوجه المحيل على الوهم...

هناك فكرة أساسية، حاولت الرواية الدفاع عنها، انطلاقا من وعي السارد، تتمثل في تنوع الحقائق؛ وذلك لتنوع المصادر والمصالح، وتعدّد وجهات النظر.

[1] - وادي اللبن، ص: 157.